كيف نشأ الوزن والقافية

فى الشـــعر العربى

للأستاذ أحمد محمد الحوفى
المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

نشأة عربية خالصة . رأى ابن رشيق فى نشأة الوزن والرد عليه .
رأيى فى نشأته ، مراحل هـذه النشأة : السجع ، التغنى بالسجع ، علاقة الشعر بالغناء ، مظاهر هذه العلاقة فى نشأة الوزن والقافية

---

(١)

نشأت الموسيقى الشعرية — الوزن والقافية — نشأة عربية خالصة خالية من تأثير أمة أخرى ، لأن الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم القديمة ، ولأن السريان القدماء ، كانوا ينظمون بغير أن يلتزموا قافية واحدة ، والعبرانيين لم يلتزموا الوزن ولا القافية ، وقد يشترطون القافية دون الوزن ، (١) فيعبر شعر العبرانيين فى هذه الصورة الأخيرة شبيها بالسجع العربى ، ولهذا لما سمعوا القرآن الكريم — وهو ذو فواصل وتصوير شعرى — زعموا أنه شعر بالقياس إلى تصورهم للشعر .

ولا سبيل إلى احتمال أن الوزن العربى متأثر بالفارسى ، لأن الشعر الفارسى القديم كان مجهولا للفرس أنفسهم حين اختلطوا بالعرب ، بل لا يزال تاريخ الأدب الفارسى اليوم يجهل ما كان عليه الشعر الفهلوى أى

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ٣ — ٢٣

الشعر الفارسى قبل الإسلام ، ولذا نشأ الشعر الفارسى فى القرن الثالث للهجرة على غرار الشعر العربى فى موضوعاته وأوزانه وقوافيه مع بعض تحوير يسير . حتى إن الفرس نقلوا الأوزان العربية وسموها بأسمائها ، ونقلوا مصطلحات العروض كلها .

وليس بصحيح ما مال إليه جرجى زيدان من أنه نشأ متأثرا بشعر الرومان أو اليونان ، إذ قال :

« امرؤ القيس أول من أطال القصائد وتفنن فى نظمها ، وفتح الشعر ، وبكى ووصف . . . . . .

ولعله تنبه لهذا التفنن فى أثناء أشعاره فى بلاد الروم ، فسمع أشعارهم أو أشعار اليونان ، والنبيه تتفتق قريحته بالاختلاط ، فزاداختباره ، فأدخل فى الشعر ما أدخله ، وكان الشعراء فى الجاهلية قلما يدخلون بلاد الروم ، وإنما كانوا يقفون على الحدود فى البلقاء عند بنى غسان ، أو فى الحيرة عند بنى لخم المناذرة ، إلا قليلا »(١) .

وهذا رأى مردود ، لأن امرأ القيس قد افتن قبل أن يرحل إلى بلاد الروم افتنانه كله ، ولأنه قضى نحبه وهو عائد فضاع معه ما اقتبسه إن صح أنه اقتبس شيئا ، ولأن القصيدة العربية كانت قد نضجت وكمل وزنها واستوت قافيتها قبل أن يرحل امرؤ القيس إلى قيصر بل قبل أن يولد ، فالمهلهل مثلا خال امرىء القيس وأسن منه وله قصائد جياد طوال .

على أن شعر اليونان والرومان خال من القافية ، والأوزان العربية غير أوزان اليونان والرومان ، والموضوعات نفسها متغايرة فليس فى الشعر الجاهلى ملاحم ولا مسرحيات كالتى عند اليونان والرومان .

(٢)

وقد قال ابن رشيق فى نشأة الوزن العربى : إن العرب احتاجوا إلى الغناء بمكارم أخلاقهم ، وطيب أعراقهم ، وذكر أيامهم الصالحة ، وأوطانهم النازحة ،

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ٣ — ٢٤

وفرسانهم الأنجاد ، وسمحائهم الأجواد ؛ فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا ، لأنهم شعروا به أى فطنوا (١)

ولكن هذا الرأى يفضى إلى أن العرب اهتدوا إلى الأوزان عن تعمد وقصد ومواضعة ، وليس هذا بشىء لأن نتاج الإلهام — والشعر إلهام — لا يخضع إلى المواضعة والموافقة ، ثم من حقنا أن نتساءل لماذا توهموا هذه الأوزان عينها ولم يتوهموا غيرها ؟ ولماذا لم يقتصروا على بعضها دون بعض ؟ وكيف تواضعوا على هذه الأوزان واتفقوا على اختلاف ديارهم وتباعد أوطانهم وتحضر بعضهم وتبدى بعضهم ؟

نحن إذاً لا نقبل هذا الرأى ، فهل نستطيع أن نبدى غيره ؟

سنحاول ذلك راجين أن نهتدى إلى صواب .

(٣)

ا — ما من شك فى أن الناس تكلموا أولا بالنثر وسيلة للتفاهم وتحقيق المنافع ، ثم تأنق بعضهم فى تعبيره تساميا بالقول أو تصويرا لعاطفة جياشة فاتزن كلامه اتزانا نشأ منه السجع ، فأعجبه وقعه فأكثر هو وأمثاله من هذا الطراز ، وحببه إليهم ماله من تأثير فى النفوس ورنين فى الآذان ، ولهذا كان من خصائص الممتازين بالكلام الرائع والمعبرين عن العاطفة ، والراغبين فى التأثير والاستمالة ، كالرؤساء والكهان والسحرة ، ليجتذبوا بموسيقاه قلوب الناس ويموهوا عليهم ويملكوا عواطفهم ، ويخدروا وعيهم ، ويحدثوهم بما يزعمون أنهم العليمون به ، فيسمع الناس عنهم مصدقين لما يقولون ، غير متبصرين فى نقد ما يسمعون وتقصى معانيه ، ولذلك قد يلجأ السجاعون إلى نوع من الغموض فيحملون الكلمة أو الجملة عدة معان ليذهب السامعون فى فهمها كل مذهب ، وقد يقحمون كلمات لا معنى لها وإنما جاءوا بها لوزن الكلام وترنيم الوقفة .

وقد اتهم العرب النبى عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر « قال الكافرون

(١) العمدة ١ — ٥

إن هذا لساحر مبين » (١) وبأنه كاهن وشاعر « وما هو بقول شاعر. قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » (٢) ، لأنه يحدثهم بالقرآن الكريم فيسحرهم ببلاغته ، ويبهرهم بموسيقاه وفواصله ، فهو فى نظرهم صادر عن قدرة فى النبى فوق قدرهم .

وقد تغنى الناس بهذا الكلام المسجوع لأنه أكثر ملاءمة للغناء والتلحين من غير المسجوع ، فنشأت الأوزان والقافية ، وقبل أن نكشف عن طريقة هذه النشأة نمهد لها بكلمة فى علاقة الشعر بالغناء عند العرب وغير العرب .

ب — ارتبط الشعر والغناء فى النشأة الأولى ارتباطا وثيقا ، ولا غرابة فى ذلك ، لأنهما معا يصدران من العاطفة ويعبران عنها . فبواعث الغناء هى بواعث الشعر ، ثم إن الموسيقى خصيصة فيهما معا ، ففى الغناء موسيقى النغمات والألحان ، وفى الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان ، ولذلك لا نعرف شعبا قديما تغنى بالنثر ، لأن الناس إن تغنوا به أول الأمر لا يلبثون أن يحسوا أن الغناء بالكلام الموزون أولى ، وأكثر طواعية للتنغيم والترنيم

وظواهر هذا الارتباط كثيرة فى الأدب العربى القديم وفى غيره من الآداب ، فقد كان شعراء العصر الجاهلى يغنون شعرهم وينشدونه وهم يلقونه ، كما روى أن المهلهل شرب خمراً وتغنى بقصيدته التى مطلعها .

طفلة ما ابنة المحلل بيضا ∴ ء لعوب لذيذة فى العناق (٣)

والسليك بن السلكة غنى بقوله :

يا صاحبى ألا لاحى بالوادى ∴ سوى عبيد وآم بين أذواد
أتنظران قريبا ريث غفلتهم ∴ أم تغدوان فان الربح للغادى (٤)

والأعشى « كان يغنى فى شعره فكانت العرب تسميه صناجة العرب » (٥)

وكان يتردد على اليمن ويسمع الغناء ويشرب الخمر ، ويسمع البربط ، ويقول :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخى بأبوابها

(١) سورة يونس (٢) سورة الحاقة
(٣) الاغانى ٥ — ٥١ الدار (٤) الاغانى ١٨ — ١٣٤ ساسى
(٥) الاغانى ٩ — ١٠٩ الدار

نزور يزيد وعبد المسيح ∴ وقيسا وهم خير أربابها
وشاهـــدنا الجل والياسمـــين والمسمعات بقصابها
وبربطنا دائم مفصل ∴ فأى الثلاثة أزرى بها

وهؤلاء الذين ذكرهم أساقفة نجران ، وكان يزورهم ويمدحهم ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهما ما شاء يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومى . فاذا انصرف أجزلوا صلته . (١)

ومُزَرِّد بن ضرار الذبيانى أو أخوه جَزْء يقول فى تهديده أعداءه بالهجاء الممض : إنه يقتحم الخصومة لا يبالى ، لأنه يتعرض فى كل شىء أو لأنه ذو فنون وذو حذق ، وهو كفيل بأن يرميهم بأهاج مرة يتغنى بها السارى ويحدو بها الآبل :

فقد علموا فى سالف الدهر أننى ∴ مِعَنٌّ إذا جد الجراء وَنَابِلُ
زعيم لمن قاذفته بأوابد ∴ يُغنى بها السارى ويُحْدَى الرواحل (٢)

وأبو النجم فى العصر الاسلامى يطلب من قينة أن تغنيه ببعض ما كان يغنى به امرؤ القيس وعمرو :

تغنى فإن اليوم يوم من الصبا ∴ ببعض الذى غنى امرؤ القيس أو عمرو (٣)

وظلت اللغة العربية محتفظة بلفظ الانشاد للدلالة على إلقاء الشعر وإن لم يصاحبه غناء ، مما يدل على صلة عريقة بين هذين الفنين ، قال حسان بن ثابت إن قلت شعرا فتغن به :

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار (٤)

وقال ذو الرمة إنه يتغنى باسم حبيبته ، أى ينشد الشعر فيها :

---

(١) الاغانى ٦ — ٦٩ — ٧٠ ساس

(٢) المفضليات ١ — ٩٨ شاكر وهارون ممن : متعرض فى كل شىء أو ذو فنون « القاموس والاساس » الجراء : الجرى . النابل : الحاذق أو الرامى بالنبل . أوابد . غرائب القول يريد بها الاهاجى المرة . (٣) الشعر والشعراء — ٤٢

(٤) العمدة ٢ — ٢٤١

أحب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجم (١)

وقال المتنبي فى مدح سيف الدولة إنه طائر غرد ،وإن الدهر يتغنى بشعره وإن شعره يغنى به من ليس من شأنه الغناء :

أجزنى . إذا أنشدت شعراً فانما أتاك بشعرى المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتى فاننى أنا الصائح المحكى والآخر الصدى
وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لايسير مشمرا وغنى به من لايغنى مغردا (٢)

ومازال الناس يطلقون على الرجل الذى ينشدهم فى المحافل قصصا شعرية كعنترة وأبى زيد اسم الشاعر . وهو لايلقى شعرا فحسب بل يتغنى به على الربابة .

* * *

على أن شعراء العصر الجاهلى أكثروا من التحدث بالمغنيات ، ولاسيما بعد ماقوى اتصال العرب بالفرس والروم والحبش ، وكثرت القيان فى بلاد العرب . قال طرفة فى معلقته إنه شرب الخمر هو وندماؤه ، وأطربتهم فينة رخيمة الصوت :

نداماى بيض كالنجوم وقينة تروح إلينا بين برد ومجسد
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى ، بضة المتجرد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروفة لم تشدد
إذا رجعت فى صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على ربع ردى (٣)

وقال امرؤ القيس إنه إن صار مكروبا فقد طالما فرج همه بسماع مغنية تعزف على عود :

وإن أمس مكروبا فيارب قينة منعمة أعملتها بكران
لها مزهر يعلو الخميس بصوته أجش إذا ماحركته يدان (٤)

---

(١) العمدة ٢ — ٢٤١ (٢) الديوان ١ — ١٩٣ شرح البرقوقى طبعة الرحمانية سنة ١٩٣٠ (٣) ديوان طرفة ٢٨ — ٢٩ (٤) ديوان امرىء القيس ١٨٧ السندوبى

وامرؤ القيس صاحب أخبار فى اللهو والخمر والغناء ، فقد رووا أنه لما طرده أبوه ، كان يسير مع جماعة من شذاذ العرب ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانة »(١)

وقد افتخر سلامة بن جندل بمغنيتهم البيضاء الحسناء الفلجاء العفيفة :

وعندنا قنية بيضاء ناعمة مثل المهاة ، من الحور الخراعيب
تجرى السواك على غر مفلجة لم يغرها دنس تحت الجلابيب (٢)

ويظهر أن الخمر كانت تصحب بالغناء فى الأعم الأكثر ، فهذا عمر بن الإطنابة يفخر باحتساء الخمر المصفاة ، وبسماع القيان العازفات على الدفوف لفتيان القبيلة ، حدث أبو الفرج أنه دعا بشرا به وقيانه فغنين له بقوله فى رثاء خالد بن جعفر لما قتله الحارث بن ظالم :

عللانى وعللا صاحبيا واسقيانى من المروق ريا
إن فينا القيان يعزفن بالدف لفتياننا وعيشا رخيا (٣)

وهذا علقمة يفخر بأنه يتادم على الخمر أو يستمع إلى المزهر.

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم والقوم تصرعهم صهباء خرطوم(٤)

وعدد عبد يغوث من مفاخر ماضيه الذى يتحسر عليه وهو فى الأسر أنه كان يشق رداءه بين القينتين وينحر للندامى مطيته :

وأنحر للشرب الكرام مطيتى وأصدع بين القينتين ردائيا (٥)

وكان مجلس الشراب والغناء يمتد إلى الهزيع الأخير من الليل ، قال كعب بن الأشرف فى فخره :

ولنا بئر رواء جمة من يردها بإناء يغترف

---

(١) الاغانى ٩ ـ ٨٧ الدار (٢) المفضليات ١ ـ ١١٨ شاكر وهارون الخراعيب : جمع خرعوبة العينة البيضاء الجميلة ، لم يغرها : لم يلصق بها (٣) الاغانى ٩ ـ ١٦٤ الدار و ١٠ ـ ٢٨ ساسى (٤) المفضليات ٢ ـ ٢٠٢ شاكر وهارون . الخرطوم أول ماينزل منها وهى صافية (٥) المفضليات ١ ـ ١٥٦

ونخيل فى قلاع جمة تخرج التمر كأمثال الأكم
وصرير فى مجالى خلة آخر الليل أهازيج بدف (١)

وارتبطت نشوة الخمر ولذة الغناء بالمتعة بالنساء، فهذا برج بن مسهر الطائى يفتخر بالخمر وسماع القيان، فتتداعى فى ذهنه خواطر اللذات فيفتخر أيضا بالاستمتاع بالنساء الحسان المنعمات اللاتى يغتسلن بالماء الحار:

وفينا مسمعات عند شرب وغزلان يعد لها الحميم (٢)

وقد فصل عبدة بن الطبيب ما أجمله غيره، فقال إن القينة كانت تطربهم بغناء الشعر الرائع الذائع، فهم فى نشوة من تطريبها، وفى طرب من الشعر، وهم لذلك يمنحونها ويخلعون عليها:

ثم اصطبحت كميتا قرقفاً أنفاً من طيب الراح، واللذات تعليل
صرفا، مزاجا، وأحيانا يعللنا شعر كمذهبة السمان محمول
تذرى حواشيه جيداء آنسة فى صوتها لسماع الشراب ترتيل
تغدو علينا فتلهينا ونصفدها تلق البرود عليها والسرابيل (٣)

وكان بمكة قينتان فارسيتان لعبدالله بن جدعان تغنيان الناس (٤). وكان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه (٥) وكانت هريرة - معشوقة الأعشى - وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو بن مرثد، وكانتا تغنيانه النصب وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان (٦)

وقد تحدث حسان عن بعض لياليه عند جبلة بن الأيهم فى الجاهلية، فقال إنه سمع عشر قيان، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس

(١) طبقات الشراء لابن سلام ١٤١. الخلة: الخربثر جمة: كثير الماء
(٢) الحماسة ٢ - ٨٣
(٣) المفضليات ١٠ - ١٤٣ قرقف: ترعد شاربها. أنف: لم يشربها أحد قبله. السمان: وشى مقارب محكم محمول، مروى. تذرى - ترفع أو تسقط حواشى أغانيها تطريبا وترجيعا فصفدها - نعطيها. (٤) الاغانى ٨ - ٣٢٧ الدار (٥) الاغانى ٩ - ١٥٧ ساسى
(٦) الاغانى ٨ - ٧٧ ساسى

يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها (١) .

وكانت الأمهات يغنين بالشعر وهن يرقصن أطفالهن ، من ذلك قول منفوسة بنت زيد الخيل وهى ترقص ولدها :

أشبه أخى أو أشبهن أباكا أما أبى فلن تنال ذاكا
تقصر عن منالة يداكا (٢)

وهن يبكين على موتاهن بغناء حزين هو النواح كما ناحت الخنساء على أخويها وكما ناحت هند بنت عتبة على أبيها وعمها وأخيها (٣) .

وكن يغنين فى المعارك ليشجعن الرجال على الاستبسال، كما غنت إحداهن فى يوم ذى قار :

إن تهزموا نعانق ونفرش النمارق
أو تهربوا نفارق فراق غير وامق (٤)

وطالما غنى الرجال بشعر حماسى وهم يحاربون ، كما فعل عمير بن الحمام إذ سمع النبى ﷺ يحرض المسلمين على قتال المشركين فى بدر ويعدهم الجنة ، فقاتل القوم حتى قتل ، وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

وكما قال أبو البخترى حين نازله المجذر فى الغزوة نفسها - وكان المجذر أخبره أن الرسول ﷺ نهى عن قتله . ولكنه قاتل دفاعا عن زميله الذى أبى المسلمون قتله — :

(١) الاغانى ١٩-١٤ ساسى (٢) المرأة العربية ١ - ١٧٢
(٣) الاغانى ١٣ - ١٢٩ ساس (٤) الاغانى ٤-٣٤ ساسى
(٥) تاريخ الطبرى ٢-١٥٣ وسيرة ابن هشام ٣-١٣ .

لن يسلم ابن حرة أكيله حتى يموت أو يرى سبيله [١]

وحدثت السيدة عائشة أن سعد بن معاذ مر عليها - وهى فى حصن بنى حارثه يوم الخندق ، وأم سعد معها - وعليه درع مقلصة قدخرجت منها ذراعه كلها ، وفى يده حربة يرقد - يسرع - بها ويقول :

لبث قليلا يشهد الهيجا حمل لابأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه : الحق يابنى فقد والله أخرت [٢]

ومما يدل على غنائهم أمام الجيش قول درهم بن يزيد فى قصيدة يهدد بها مالك بن العجلان

لأصحبن داركم بذى لجب جون له من أمامه عزف [٣]

* * *

وكانوا يتغنون بالشعر فرادى ويتغنون جماعات ، فقد روى عن أنس بن مالك وعن السيدة عائشة أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان وذوات الخدور يغنين بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع [٤]

وبنو النضير لما أجلاهم النبى عن المدينة خرجوا يريدون خيبر وهم يضربون بدفوف ويزمرون بالمزامير [٥]

وفى حفر الخندق رأى النبى عليه الصلاة والسلام ما بالصحابة من تعب وجوع، لأن الزمن كان عسرة والعام عام مجاعة فقال متمثلا بقول ابن رواحة:

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وأجابه الصحابة بقولهم :

نحن الذين بايعنا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا

وقال ﷺ متمثلا أيضا بقول ابن رواحة ، وهو ينقل التراب وقد وارى الغبار جلد بطنه الشريف :

(١) تاريخ الطبرى ٢ - ٢٨١ المطبعة الحسينية (٢) تاريخ الطبرى ٣ - ٤٩
(٣) الاغانى ٣ - ٢٢ الدار (٤) السيرة الحلبية ٢ - ٥٨
(٥) الأغانى ٢ - ٥٨

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إذ لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

وكان يمد صوته ويكرر : أبينا ، أبينا .

وروى أنه ﷺ لما بدأ بالحفر فى الخندق قال :

بسم الإله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا
يا حبذا ربا وحب دينا (١)

ولم يكن الشعر العربى وحده هو المتصل بالغناء هذا الاتصال الوثيق ، فقد كان الشعر اليونانى كذلك ولهذا أطلق اليونان على الشاعر كلمة Aede أى المغنى فى القرن الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد ، وكان هو ميروس يتغنى بالإلياذة على آلة موسيقية خاصة . ولم يكن التغنى بالشعر عند اليونان وقفا على نوع معين منه ، فقد تغنوا به فى مناجاة الآلهة وفى مدح الملوك ، وفى إلقاء القصص ، وكان الشعر التمثيلى يوضع حوارا وأناشيد غنائية .

« على أن الشعر الغنائى اكتسب هذه التسمية من نسبته إلى كلمة lyre وهى آلة موسيقية قديمة فسمى lyric Poetry أى الشعر الغنائى » (٢)

وكان أرسطو يرى أن الشعر الغنائى مرتبط أشد الارتباط بالموسيقى (٣). ثم نشأت بأوروبا فى العصور الوسطى جماعات من الشعراء الجوالين يطوفون بالبلاد ويتغنون بشعرهم ، وقد أطلق عليهم فى غرب أوروبا ووسطها التروبادور Troubadour وسموا فى شرقيها بالمنسنجر Minnisinger .

وفى اللغة الانجليزية كلمة Bard معناها الشاعر المنشد الذى يؤلف الشعر ويغنيه . وهو يحمل معه أداة موسيقية يعزف عليها حين يلقى شعره ويغنيه .

حـ — وما من شك فى أن الغناء يقتضى أن يكون الكلام الذى يغنى موزونا ، لأن الغناء منبعث عن عاطفة ، والمنفعل يتغنى بعاطفته وخواطره

(١) السيرة الحلبية ٢ — ٣٣٢
(٢) أصول النقد الأدبى ص ٣١٨ أحمد الشايب (٣) قواعد النقد الأدبى لاسل كرومبي ترجمة محمد عوض محمد ٧٠

غناء ملائما لهذه العاطفة ، ولذا فإن الموسيقى الشعرية لابد أن تلائم الحالة النفسية للقائل ، يقول الناقد الانجليزى جرينج لامبورن Greening lamborn « إن الموسيقى خارجية وداخلية ، والعروض يتكفل بالخارجية ، أما الداخلية فتتكفل بها مقاييس صوتية فى داخل النفس أكثر مرونة وشمولا من العروض »(١)

فالوزن ظاهرة طبيعية للعبارة مادامت تؤدى معنى انفعاليا ، وعلم النفس يقرر أن الإنسان المنفعل تبدو عليه ظاهرات جثمانية عملية كاضطراب النبض وضعف الحركة أو قوتها وسرعة التنفس أو بطئه ، وحركة الأيدى قبضا وبسطا ، وهذه نفسها دليل على مافى النفس من قوة طارئة « فاللغة التى تصور هذا الانفعال لا بد أن تكون موزونة ، ذات مظاهر لفظية متباينة لتلائم معناها وتكون صداه الصحيح »(٢) ولا سبيل إلى وزنها إلا أن تكون ذات تقاطيع وتراجيع وأجزاء متناسبة الأطوال والأصوات .

* * *

والغناء كان من دأب العربى وهو يقطع المسافات الطوال على راحلته ، تمشى به متئدة أو مرقلة ، وهو يهتز هزات تبطىء وتسرع ، وتطول وتقصر ، ومن دأبه وهو يهجم فى الحرب فيجرى أو يثب ، ومن دأبه وهو يمتح الماء من البئر فيرتفع وينخفض ، ومن دأبه وهو يرقص ، ومن دأبه وهو يزاول عملا تصحبه العاطفة ، وتعوزه التسلية الخ يغنى فيتقطع صوته وفقا لحركات جسمه وهزات نفسه ، وتتقطع كلماته ومقاطعه إلى أجزاء متزنة منسجمة ، لأن صلة الغناء بالشعر من شأنها أن تحدث ذلك .

فهذه اللحمة التى وصلت الغناء بالشعر تخولنا أن نقول إن التغنى بالكلام المنثور عسير ، لأنه لا يطاوع الترجيع ، ولا يلين للترنيم ، وبذلك لا تستحليه الأذن ولا يستسيغه اللسان .

فمن الطبيعى أن يتغنى الناس بكلام موزون يساير ألحان الغناء ، وتطرب

(١) rudements of Criticism (٢) الاسلوب ص ٤٩ أحمد الشايب .

له الأذان، وهم لذلك قد تغنوا بالسجع لما فيه من موسيقى الوقفات، ثم حاولوا أن يخضعوا هذه اللغة المسجوعة إلى النغمات التى تطابق العاطفة وتطاوع التغنى فتخيروا الكلمات المتسقة مع النغم الذى فى النفس ، وتصرفوا فى بعض الكلمات بتحريك الساكن وتسكين المتحرك وقصر الممدود ومد المقصور ، وترخيم بعض الأسماء وتنوين ما لاينون إلى غير ذلك مما يعد ضرورات شعرية ، وتصرفوا أيضا فى الأوزان نفسها بحذف وزيادة وتحريك وتسكين مما يعد من الزحافات والعلل العروضية .

فصارت اللغة التى يتغنى بها الناس لغة موزونة تلائم حركاتها وسكناتها ومداتها ووقفاتها الأنغام التى يتغنون بها ، والألحان التى يرجعونها ، والنفس وهو يطول أو يقصر ، ويسرع أو يبطىء ، فنشأ الوزن منوعا كتنوع التلحين الفطرى ، واستراحت النفس لهذا التقطيع ، وجعل المغنى به يوليه من عنايته وتجويده ، وجرت به الألسنة تحتفيه ملتذة ، وغبر على ذلك ردحا من الدهر كان كفيلا بنقلته من الطفولة الى الصبا .

وهنا ، وفى هذه النقلة نشأ الوزن من الغناء بالكلام المسجوع .

* * *

ى — ونشأت القافية أيضا هذه النشأة ، فهى فى أول أمرها كانت سجعة ثم التزمت فى آخر الأبيات كلها تمشيا مع الغناء ، لأنها قوية الشبه بوقفات المغنين ، ونهايات العازفين ، وسكنات الناقرين على الدف ، والمصفقين بالأكف ، والموقعين بأرجلهم فى الرقص ، فهى نهاية النفس فى البيت ، واستراحة من البيت إلى البيت ، ولأنها مضافة إلى الوزن تكسب الشعر رنينا وتزيده موسيقى .

وقد أسهلت القافية للشاعر العربى لغنى اللغة بالمفردات الكثيرة ذات النهايات الواحدة ، ففيها « من القوافى المتناسبة مايتعذر وجود نظيره فى سائر اللغات ، فلا يسوغ لها أن تبرز عاطلا مع توفر ذلك الحلى الشائق ، فاذا اقتصر الافرنجى على صوغ شعره كالرجز العربى لكل شطرين قافيتان متناسبتان

ينتقل منهما الى غيرهما واضطر إلى تكرارهما بعد حين ، أو لو اختار أن يعرى شعره من القوافى بتاتا فعذره أن لغته هكذا خلقت ، بل لو أجهد نفسه فى مواضع كثيرة لتعذر عليه تعزيز قافيتين بثالثة ، والشاعر العربى بخلاف ذلك ، فان كثيرا من ضروب القوافى تنهال عليه انهيال الغيث ، وإذا انحبست فلا تنحبس إلا لقصر باع أو لقرع باب ضيق ، أو لتجاوزه الحد فى إطالة القصيدة المنظومة على قافية واحدة »(١)

* * *

هـ — ثم تنوعت البحور وفق الموضوع ووفق الحالة النفسية للقائل ، لأن الموسيقى الشعرية المعبرة هى التى تساير موضوع القصيدة ، وتوائم التجربة الشعرية ، يقول سبنسر : « إن خير الموسيقى ماتتمشى مع الأفكار وتتساوق مع المعانى ، وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس ، فالشاعر فى اهتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره الموسيقى عالى النغمة وفى حزنه يكون منخفضها ، وفى تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون مسافاته الصوتية قصيرة ، وأما فى بثه وألمه فتكون مسافاته الصوتية طويلة ، وهكذا تساير النغمات حالات النفس كما تساير موضوع القصيدة وفكرته (٢).

وهذه النشأة الغنائية أو النشأة الموسيقية للوزن هى التى مكنت الخليل بن أحمد أن يهتدى إلى علم العروض ، ولولا علمه بالموسيقى والتوقيع ماتهدى إلى الكشف عن قواعد هذا العلم ، وحسبنا أنه ألف كتابا فى النغم كما ذكر ابن خلكان (٣) ، وكان إخوان الصفا على حق إذ رأوا أن الموسيقى مماثلة لقوانين العروض (٤) .

ومما يعزز هذا الرأى أن الأوزان التى استحدثت بعد العصر الأموى كانت أيضا وليدة الموسيقى ، فالموشحات الأندلسية نشأت متأثرة بالغناء

---

(١) مقدمة ترجمة الالياذة البستانى ص ٩٥

(٢) الشعر المعاصر . مصطفى الصحرتى ص ١١٥

(٣) وفيات الاعيان ١/١٧٢ (٤) الرسائل ١/١٤٤ طبعة مصر

والموسيقى لتلائم الأوزان الشعرية الألحان الموسيقية .

ولذلك لم يتصور نقاد العرب الشعر إلا موزونا مقفى ، فمثلا ابن رشيق جعل أركانه أربعة : اللفظ والمعنى والوزن والقافية (١)، وأبو هلال العسكرى جعل من مراتب الشعراء العالية التى لا يلحقه فيها غيره من الكلام أنه منظوم (٢)

و — ولا يقدح فى هذا أن شعر بعض الأمم لا يلتزم الوزن والقافية كالشعر القبطى ، فانه — على ما وصفه هرمن بونكر — يجرى على غرار الشعر الفرعونى ، فلا يراعى الوزن والقافيه ، لأنه يستعيض عن هذا النقص بقيم موسيقية يراعيها فى كل بيت ، تكفل انسجام الكلمات وتوقيعها ، وذلك بالتوافق فى جرسها وتتابعها فى ترتيب يحدث نغمة موسيقية ، شأنه فى ذلك شأن الشعر فى اللغة المصرية القديمة (٣).

ومع ذلك فان خلو الشعر من الوزن يحرمه خاصية من خواص جماله وتأثيره ، وإذا كان الكاتب الأمريكى والت وتمان Walt witman قد هجر الوزن فى معظم شعره واحتذاه كثير ممن جذبتهم الدعوة إلى التحرر من الأوزان ، وإذا كان أيضا لم يأبه للقافية ، « فإنه قد اهتم بالايقاع ، وقد بلغ شعره درجة إيقاعية عالية » (٤). فهو إذا يريد أن يعوض ماعمد إلى حذفه ، يريد أن يضفى على شعره المجرد من الوزن والقافية جمالا أسلوبيا آخر ، ولكن هذه الدعوة لم تصادف قبولا .

وكيف تصادف قبولا والوزن من أهم الخصائص التى تميز الشعر من النثر ولذا قال لاسل إبركرومبى Lascelles Abercrombie فى كتابه (الشعر : موسيقاه ومعناه) : « يلزم أن تصبغ الموسيقى كل التصيد فى الشعر الغائى »(٥)

أحمد محمد الحوفى
المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

(١) العمدة ١/٧٧ (٢) الصناعتين ١٣١
(٣) مجلة الرسالة . المجلد الأول ص ٧١٨ سنة ١٩٣٦ . (٤) الشعر المعاصر ص ١١٨ السحرتى . (٥) Poetry, its Music & Meaning عن الشعر المعاصر ص ١٨٨ .